أحمد توفيق المدني (1889 - 1983م)

كتبت عنه بإطناب في كتابي (شخصيات فكرية وأدبية..) الذي صدر عن دار الأمة منذ بعض سنوات، وهنا أوجز القول عنه وأقول:

عرفته معرفة جيدة في المعاصمة حينما كنت أكتب (مقاصد القرآن) بعد أن سمعته يخطب في مهرجان أقيم ببلفدير بتونس أواخر الأربعينيات، وكنت إذ ذاك طالبا بجامع الزيتونة، فاستهوتنا فصاحته، وشدّتنا إليه عبقريته في الإقناع بأساليب مختلفة من التصوير والتدليل والإبداع.

وأذكر أن الطلبة التونسيين افتخروا به لأنه وُلد في تونس، وعاش فيها جزءا من عمره، وأننا -معشر الطلبة الجزائريين- نازعناهم في ذلك وقلنا لهم نحن أحق بالافتخار به لأنه هاجر من تونس إلى الجزائر بعد نضجه الفكري وإدراكه لجمال الجزائر الفتان (وطبعا كان هذا في مجال المزاح).

ثم أخذت أزوره في مكتبه بشارع بوزرينة كلما أزور الجزائر، وعندما كنت أكتُب (مقاصد القرآن) كنت أحدثه عنه، وكان يبتهج بعملي فيه، ويشجعني عليه، ويبالغ أحيانا في الإشادة بفكري وقلمي.

ولما انتهيت منه أصابني إرهاق كبير، ضعضع جسمي، وأتعب نفسي، وكدّر عليّ صفو حياتي، فحدثته عن هذه الحال، فواساني بكلمات لطيفة مشجعة، وكان مما قاله لي:

إنه القرآن يا عزيزي، القرآن الذي نزلت منه آيات على سيدنا محمد، رسول الله، فأخذته حمّى، حتى قال لخديجة:

زمّلوني، زمّلوني!!

وأنت انقطعتَ إلى هذا الكتاب السماويّ العظيم شهورا، تفكّر فيه، وتتمعن في أسراره، وتتفاعل مع إيحاءاته وإلهاماته، وتظن أن الأمر هيّن؟

إن ما أصابك من جرّاء كل ذلك أمر طبيعي، لا تقلق منه أبدا، لا سيما وأجرك عند الله عظيم!

ورأيت أنه أجدر بتقديم هذا الكتاب، لأنه كان يواكبُ بالفكر والتشجيع تدرُّجي في إعداده وتأليفه، فقدمته إليه، فقال -متواضعا- مَن أنا حتى تقدّم إليّ هذا السفر الجليل، وإنما استسمنت ذا ورم.

ولما عدت إليه لاستلام المقدمة أعلمني أن هناك علماء أعجبوا بالكتاب واقترحوا أن تنشر فصول منه في جريدة (البصائر)، منهم الشيخ العربي التبسي، وفعلا نشرت أحاديث منه تباعا مهّدت لصدوره!

وللأستاذ المدني مواقف إنسانية، وقفها معي في هذه الفترة، أفضل أن أحيل القارئ الكريم عليها في كتابي (شخصيات فكرية وأدبية) إن أراد الوقوف عليها.

وعندما كنت بطرابلس الغرب مكلَّفا بالإعلام لثورتنا التحريرية، كان يمر بها من حين لآخر إلى تونس أو آيبا منها، وكنا نتلاقى في جلسات حميمية، نذكر الماضي، ولكن سرعان ما يسيطر علينا الحديث عن ثورة التحرير، وخاصة بطولات المجاهدين البواسل.

وكم كان ابتهاجه كبيرا عندما أهديت له كتابي (من صور البطولة في الجزائر) الذي كتبته مع الصحافي الكبير الليبي الأستاذ فاضل المسعودي.

وفي بداية الاستقلال، عندما كان وزيرًا للأوقاف، كنت أزوره في مكتبه بالوزارة في ساحة الشهداء مقرها القديم، ويستبقيني معه مدة للحديث عن قضايا الساعة في تلك الفترة، وقد عرض عليّ منصبا بالوزارة، ولكني استعفيته ورأيت أن حريتي أولى، وأنني خلقت (للخربشة) كما يقول المرحوم الأخ مولود قاسم.

والذي نسجله للتاريخ، وبدافع من الأمانة العلمية، أن الأستاذ توفيق ذو فكر واسع، ولسان فصيح، وبلاغة وبيان، ووطنية متأججة، وكراهية للاستعمار لا حدّ لها، وأنه سخر هذه الكفاءات لخدمة أهداف جمعية العلماء، وكان كاتب عام لها، ومحرر مقالات ضافية في الصحف الإصلاحية المختلفة، وصال وجال خطيبا في المغرب والمشرق العربيين، وهو إلى ذلك كله شاب في مختلف مراحل حياته، حتى في شيخوخته، لا يعرف الكسل والخمول.

ولكن ما يلاحَظ عليه ويؤاخَذ به -والكمال لله- هو المبالغة، وقد يزل به الفكر، ويشط به القلم، فينسب لنفسه ما هو لغيره، ومن أراد أن يقف على ذلك فليراجع كتابه (حياة كفاح).

ومما يرفضه العقل ويعد من زلات العقل وهفوات القلم ما سجّله في مقاله (من سجل الجهاد الجزائري في الخارج) وقال في معرض حديثه عن مقابلته الملك السابق في ليبيا المرحوم إدريس السنوسي، بشأن مرور السلاح عبر التراب الليبي إلى الجزائر، وجاء فيه ما يلي:

«ذهبت -وأنا متوتر الأعصاب، متجهم، عابس، وقد فارقني في تلك المناسبة ما كان مشتهرا عني من تفاؤل، ومن ابتسام، يكاد يكون تقليديا، وأدخلوني على الملك، في غرفة صغيرة بسيطة، بلغت الحد الأقصى من البساطة، ووقف لي الملك كعادته مرحبا، فما كاد بصري يقع عليه حتى تشنجت، وسالت دموعي مدرارا، وما كنت قبل ذلك أعرف البكاء، إطلاقا.

قال لي الملك مندهشا: يا لطيف، ماذا جرى؟

ما سبب هذه النوبة العاصفة؟

قلت وصوتي يتهدج لا يكاد يبين: أبكي على هذه اللحية البيضاء التي شابت في الإسلام والجهاد.. وستساق إلى جهنم مجرمة آثمة...

أبكي على هذا الجهاد الطويل الذي كان مآله الانهيار والاستخذاء...»

وقبل أن نورد جواب الملك، نلاحظ أن هذا الكلام يرفضه العقل والذوق معا.

أما العقل فلأن من يتهيأ لمقابلة الملك وخاصة من هو ممثل للجزائر وثورتها التاريخية، وجاء طالبا أو مستعطفا لا يكون متشنجا.

وأما الذوق، فلأن من هو في مستوى الأستاذ المدني علما ومعرفة، لا يمكن أن يكون متشنجا في موقف حساس مثل هذا الموقف.

فهل من الذوق في شيء أن يقال عن لحية الملك التي شابت في الإسلام ما قيل؟

أما جواب الملك، فها هو:

«إن الذي قلته فظيع.. فظيع جدا.. أجل هو فظيع جدا بالفعل».

إن الجو الذي تصنعه عبارات الأستاذ المدني، جوّ غريب عن التفكير الصحيح، والذوق والديبلوماسية، وما أساغه وأجازه إلا هفوة القلم، فسبحان من تفرد بالكمال.

ويبقى الأستاذ المدني، بجهاده الفكري والقلمي، ونهوضه بالدعوة الإصلاحية، التي اضطلعت بها جمعية العلماء، مُشْرقا في الذاكرة، رغم تلك الغيوم والغواشي، (وكفى المرءَ نبلا أن تُعَد معائبه).

محمد خير الدين (1902 – 1993)

من رواد الإصلاح، ومن العلماء العاملين في جمعية العلماء في مجال التربية والتهذيب. درس بقسنطينة ثم في جامع الزيتونة بتونس، الذي أحرز فيه على شهادة التحصيل سنة 1925.